

رقصتها الأخيرة

زياد خدّاش

النور انطفأ، ابتلعه برد المدينة وطلقات غزاتها، في غرفة صغيرة داخل بيت كبير التصقت امرأة بيضاء وفتاة سمراء بزواوية جدار، التصقتا رعباً من ليل طويل عاصف، وطلقات مجاورة لا تغادر ابداً، النوافذ مفتوحة على مصراعها، الريح تطوّح بالستائر ترميها داخل البيت حيناً وحيناً خارجه، المرأة والفتاة لا تجرّوان على اغلاق النوافذ خوفاً من طلقة طائشة، الغرفة ضيقة، المرأة لا تعرف الفتاة، فوجئت بها تدخل البيت الكبير الواقع على تلة عالية فجأة حين طاردها الرصاصات وطاردت كل أشياء مدينتها، تشوشت أوضاع المدينة وحركة سكانها بفعل الاجتياح المفاجيء... الذين فاجأهم الاجتياح دخلوا اول بيت صادفوه في طريقهم، بعض البيوت رفضت فتح بيوتها خوفاً من تبعات ايواء المطاردين، بيوت اخرى اقتحمت من قبل الناس التائهين المذعورين، فاضطر أهلها إلى الترحيب بهمس وتوتر.

المدينة لم تعد مدينة، صارت سجنًا جماعياً، والسكان لم يعودوا سكاناً، صاروا كائنات مطاردة دائخة، تتراكم من شارع الى آخر، من بيت الى بيت. تغيرت معالم سكان المدينة، اختلطت أعمارهم وفئاتهم وهوياتهم، قد تجد اربع فتيات خجلات في بيت مهجور فاخر تواجد فيه شاب مطارد، وقد تجد

امرأة واحدة في غرفة شاحبة لطلاب جامعيين، وقد تصادف رجلا عجوزا في بيت امرأة مطلقة، تعيش مع ابنها الرضيع، وبالامكان سماع بكاء بنت صغيرة في غرفة معتمة لعجوز مخيفة العمى والتجاعيد والغمغمات ...

مستشفيات المجانين ودور المسنين اقتحمت أبوابها، اختلط المجنون بالعاقل، والمسّن

بالشباب، الأغنياء جلسوا على حصير الفقراء، الفقراء مرغوا عيونهم الفقيرة بفراش الاغنياء الدافئ، المجرمون، والفاسدون، واللصوص، والعملاء حشروا مع ائمة المساجد ورؤساء الاحزاب والمعلمين في غرف رطبة صغيرة. الكل صامت، لا قوة له ولا حول، الدبابات والريح وحدهما يتكلمان بصوت عال.

الفتاة السمراء، طرقت باب اول بيت صادفها في طريقها الهائم خلف خطوات الراكضين، لم يفتح الباب، فاضطرت إلى ركله. أطلت امرأة خائفة من وراء الستارة. فتح الباب، دخلت ...

الليل جاء بسره الدامي وغموضه ونهاره البعيد، سكتت الأنفاس عن اللهاث، المساجين، رضوا بقدرهم، بلا نوم وبعيون واسعة وجامدة انتظروا النهار القادم،

لم تسأل إحداها الأخرى عن اسمها أو عملها، في البداية لم تتكلما كثيرا، انكمشت كلتاها على سرها الخاص ومخاوفها الشخصية. التصقتا مقابل بعضهما البعض بجدار، غارقتين في عتمة غرفة باردة، الشفاه تهتز، الأيدي ترتعش، ووحدها الريح ترقص مع الستارة رقصة حب غريبة.

الطلقات لا تسكت، كأنها مذياع مفتوح نسيه شبان ماجنون أثناء رحلة ممتعة في غابة،

نهضت البيضاء تتلمس طريقها متكئة بيدها على الجدار، في اتجاه المطبخ، لم تحرك السمراء ساكنا، بقيت جامدة تحدق في العتمة، عادت البيضاء بكأسي ماء، قدمت كأساً للسمراء، شربت السمراء الصغيرة، كأنها لم تشرب منذ عام، جلستا متجاوتين، تستطيع إحداها الآن أن تسمع أنفاس الأخرى، أنفاس خافتة كأنها همس شجرتين وحيدتين ترثيان ورطة وجودهما على سفح جبل وعر وقاحل،

البرد، الموت، العتمة، مدينة خرساء، فتاة صغيرة وامرأة، الكتف تميل على الكتف الاخرى، الدبابة تميل بثقلها المروع على الجدران والسيارات وجدران

البيوت المحاذية للشارع العام، صياح أصحاب البيوت يختلط مع صياح الريح، باطن اليد البيضاء على ظاهر اليد السمراء، الطلقات تدخل من النوافذ، وتستقر في خزانة الثياب، البرد لا يرحم، العتمة لا تهدأ، الريح متوحشة، متوحشة.

الخد الأبيض على الخد الأسمر، اليد تبحث عن الخلاص في اليد الأخرى. كان يجب ان اكون هناك في حضن امي ففي احضان الامهات تخرس الطلقات وتذوب العتمة.

امي مريضة قلب وقد تموت في أية لحظة بسبب قلقها على غيابي.. اليد البيضاء تمسد شعر الفتاة السمراء، كأنها تقول: انا امك، الدموع الصغيرة تتجمع في اليد البيضاء نقيه ورشيقة وحارة تغسل البيضاء وجهها بدموع السمراء، الوجه الأسمر في حضن المرأة البيضاء مغمض العينين، تائه، دبق وحزين، الانفاس تشتبك مع الانفاس، العيون مغمضة... كان يجب أن أكون هناك في حضن زوج خانني وهرب مع صديقتي. عشرون عاما من الحب الكاذب وفجأة يهرب مع اعز صديقتي دون تفسير، دون اعتذار.

فتحت الفتاة السمراء عينيها المندهشة على وقع دموع البيضاء الثقيلة، رفعت وجهها ودفنت راس السمراء في صدرها، دوت رصاصة جديدة فوق رأسيهما مباشرة، صرختا التصقتا ببعضهما البعض اكثر، زحفتا على الارض واندستا تحت لحاف ثقيل، جسد واحد، دموع واحدة، عتمة داخل عتمة، أنفاس تختبئ في أنفاس أخرى.

إذا ماتت أمي، وأنا بعيدة عنها سأموت بعدها مباشرة، على الاقل اكون بجانبها وهي تموت، ليس لي غيرها في هذا العالم، وليس لها غيري...

تركني زوجي لأنني لا أنجب، قد يكون معه حق في الرغبة باولاد ولكن ليس بهذه الطريقة، فقط لو أنه اعتذر أو إحتضني وهو يقرر...

رصاصة أخرى... التصاق أقوى... الوجه الأبيض مدفون في الصدر الأسمر، السمراء تحيط الرأس بيديها، وهي تهمس: آه يا أمي كم أود أن أكون بجانبك الآن، اعرف انك تموتين، سامحيني، يا أمي...

رصاصة أخرى... آه يا أمي

السمراء لا تعرف أن البيضاء كانت تكذب، فلا زوج هناك، لا صديقات، ولا أمل بأولاد، كيف للسمراء أن تعرف أن البيت الذي تتواجد فيه الآن ليس بيتاً عادياً، وان المرأة البيضاء ليست صاحبة هذا البيت هي نزيلة فيه مع عشرات النزيلات الضاحكات اللواتي هربن مع الريح الى المجهول مع انطلاق موسم الهرب.

البيضاء لم تهرب، لا احد يعرف لماذا...

هل شبعت هرباً؟ إلى أين ستهرب لم يعد أحد يصدق أنها رسامة، لن تشفع لها معارضها في أوروبا، هل هي كذبة أخرى؟ لا احد يصدق، حقائقها اختلطت مع أكاذيبها، صار لحياتها هدف احد: أن تفصل بينهما، اليدان البيضاءوان تحوطان عنق السمراء الهش مثل رماد سيجارة. السمراء تفتح عينها على وسعها مستغربة من قسوة الايادي البيضاء التي كانت حنونة قبل قليل، كانت يدي أمها، تحاول السمراء أن تملص.. اتركيني أرجوك، أنت تخنقيني،

اليدان الغريبتان تشددان من قبضتهما على، وجه البيضاء يتحول الى صخرة منحوتة بشكل غير متقن، وجه بارد وثقيل يتلقى أوامره من جهة غامضة، السمراء تصيح
آه يا أمي...

البيضاء امرأة اخرى الآن، كائن غريب لا ينتمي إلينا، كائن هبط خطأ من سماء أخرى،

عينا السمراء جحظتا، لسانها الصغير قفز الى الخارج مصعوقا... و ساكن هو الجسد الأسمر الصغير ساكن تماماً.

تجلس المرأة البيضاء أمام المرأة، ما أجملها! شعرها أسود لا تحده حدود، لا تفسره كتب، شفتان ممتلئتان، ذكيتان، عينان عميقتان، قادمتان من أول العالم، ما الذي فعلته؟ أمجنونة هي...؟

انحنت على الجسد الأسمر.. انهضي يا فتاة، انهضي ودليني على الطريق إلى المطبخ فأنا عطشانة.. ما هذه الأصوات الغريبة في الخارج؟ من الذي فتح النوافذ على مصراعيها؟ احد ما خان السقف والأرائك والجدران وباع أسرارها للريح، من أطلق جنون الستارة؟

من؟

من؟

المرأة البيضاء تمشي بطيئة ومشوشة باتجاه النافذة المستباحة، لا أحد يعرف ما الذي تفكر به، قبضت على الستارة المجنونة، عانقتها بقوة، همست بكلمات غريبة، أخذتها الستارة معها، طوّحت بها، مرة داخل الغرفة، ومرة خارجها كانتا ترقصان رقصة حب غريبة...